قناة لوغوس بالولايات المتَّحدة الأمريكيَّة
إيبارشيَّة لوس أنجلوس
لقاء على الهواء. الخميس ١٩ نوفمبر ٢٠١٥م
الرَّاهب القس أثناسيوس المقاري

سرّ الإفخارستيَّا

مسمَّيات السِّر

• نالت ليتورجيَّة القُدَّاس الإلهي على مر العُصور، كثيراً من المسمَّيات الطَّقسيَّة المرتبطة تاريخياً بطقوس الكنائس المختلفة. أمَّا تعبير "**كسر الخُبز**"، فهو الاسم الأقدم لهذا السِّر، وقد ورد ذكره هكذا في سفر أعمال الرُّسُل عندما كـان المؤمنـون يجتمعون معاً لكسر الخُبز والصَّلاة بسرور وابتهاج وبساطة قلب.

ويُعدُّ القدِّيس إغناطيوس الأنطاكي الشَّهيد (٣٥- ١٠٧م) هو أوَّل من أشار إلى عشاء الرَّب السِّري بكلمة "**إفخارستيَّا**" εὐχαριστεία أي "الشُّكر". موضحاً أنَّ الإفخارستيَّا هي المعروفة بـ "كسر الخُبز". حيث استخدم لفظة "إفخارستيَّا" أربع مرَّات في رسائله، وفي كلِّ مرَّة، يتغيَّر مدلول الكلمة حسب سياق النَّص.

أمَّا مصطلح "**الذَّبيحة**"، فهو من أقدم المصطلحات الطَّقسيَّة الخاصة بالقُدَّاس الإلهي في كنيسة مصر، كما نجده عند العلاَّمة أوريجانوس (١٨٥- ٢٥٤م)، والبابا تيموثاوس الأوَّل (٣٨٠- ٣٨٥م) الذي يدعو القُدَّاس الإلهي باسم "**الذَّبيحة الرُّوحانيَّة**".

ومن أقدم المسمَّيات لهذا السِّر في الكنيسة القبطيَّة، المصطلح اليوناني προσφορά (**بروسفورا**) والذي انتقل بنصِّه ونُطقه إلى اللُّغة القبطيَّة **ⲡⲣⲟⲥⲫⲟⲣⲁ** ويعني "**تقدمة**". فنصُّ قُدَّاس القدِّيس سرابيون أُسقُف تمويس في القرن الرَّابع عنوانه الرَّئيسي هو Εὐχή προσφορᾶς أي: "صلاة البروسفورا" أو "صلاة التَّقدمة". وهي نفس الكلمة "بروسفورا" الـتي وردت في قوانين البابا أثناسيوس الثَّاني (٤٨٩-٤٩٦م) بطريرك الإسكندريَّة في نهاية القرن الخامس. ولكن المترجم لهذه القوانين إلى اللُّغة العربيَّة في القرن الحادي عشر الميلادي، ترجم كلمة "**بروسفورا**" القبطيَّة إلى كلمة "**قُدَّاس**"[١]، وهو ما استطعنا أن نعرفه من النَّص القبطي للقانون (٤٩)، والقانون (٩٣)، وهما من بين القوانين القليلة ضمن هذه القوانين التي لازالت محفوظة لـدينا بنصِّها القبطي القديم[٢]. بل إنَّ الاصطلاح اللِّيتورجي "**بروسفورا**" هو أقدم من ذلك أيضاً، إذ نجده عند العلاَّمة أوريجـانوس المصري (١٨٥- ٢٥٤م) في حديثه عن صلوات القُدَّاس الإلهي.

وهناك أيضاً مصطلح "**السَّرائر**" أو "**الأسرار**"، والذي يُطلق على هذا السِّر في الكنيسة القبطيَّة، وقد ورد في قوانين البابا تيموثاوس (٣٨١-٣٨٨م) البطريرك الـ ٢٣ من بطاركة كنيسة الإسكندريَّة. وأيضاً في قوانين البابا أثناسيوس الثَّـاني (٤٨٩-٤٩٦م) بطريرك الإسكندريَّة في نهاية القرن الخامس الميلادي[٣].

أي أنَّ المسمَّيات: "**بروسفورا**" أي التَّقدمة، "**السَّرائر**" أو "**الأسرار**" هي من المسمَّيات القديمة لهذا السِّـر في الكنيسة القبطيَّة.

أمَّا المصطلح اليوناني σύναξις (**سيناكسيس**) أي "اجتماع"، فهو الاسم القبطي للقُدَّاس الإلهي في زمـن البابـا أثناسيوس الرَّسولي. وهذا المصطلح يعني أيّ اجتماع لعبادة أو صلاة جمهوريَّة بما في ذلك الاجتمـاع مـن أجـل إقامـة

١- كما في القوانين ٤:١٤، ١:٢٥، ٤٠، ١:٤٩، ٢:٩٣
2- Riedel, W. and Crum, W., *The Canons of Athanasius Patriarch of Alexandria*, London, 1904, p. 92, 112.
٣- انظر القوانين ٦:١٠، ٣٦، ٤١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٨٧

الإفخارستيَّا liturgical synaxis . وهي كلمة تُستخدم في الكنيسة الشَّرقيَّة عموماً، ونجدها في قطمارُس الكنيسة القبطيَّة باسم ⲥⲩⲛⲁⲝ (سيناكس). ولكنَّها في الغرب استُخدمت منذ وقت مبكِّر لتعبِّر عن اجتماع غير ليتورجي للشَّعب، أي اجتماع لغرض دون إقامة الإفخارستيَّا aliturgical synaxis متضمِّناً تلاوة مزامير وقراءة فصول كتابيَّة وصلوات بعيداً عن إقامة خدمة القُدَّاس، وهو ما نعرفه في الكنيسة القبطيَّة بطقس صلوات رفع البُخور في عشيَّة وباكر، أو خدمة صلاة المزامير في الأديرة.

وعلى ذلك، فهناك نوعان أساسيَّان من ''**السِّيناكسيس**'' أو ''**السِّيناكس**'' هما: ''السِّيناكس الكبير – ⲡⲓⲛⲓϣϯ ⲛ̀ⲥⲩⲛⲁⲝ''، ونعني به خدمة إقامة الإفخارستيَّا ويحويها كتاب الخولاجي المقدَّس. و''السِّيناكس الصَّغير – ϯⲕⲟⲩϫⲓ ⲛ̀ⲥⲩⲛⲁⲝ'' ونعني به صلوات رفع البُخور والتَّسبحة، وصلوات المزامير في سواعي اليَوم.

وفي الكنيسة البيزنطيَّة، يُسمَّى السِّر ''اللِّيتورجيَّا الإلهيَّة''. أمَّا الأرمن والسِّريان فيدعونه – كما عند الأقباط – ''الذَّبيحة'' أو ''القُربان (قربونو)'' أو ''التَّقدمة (بروسفورا)''. أمَّا الأحباش والآشوريُّون فيقولون ''التَّقديس (قُدَّاسة – قِدَّاسة – قدَّاشاه)''.

إلاَّ أنَّ اللَّفظ الأكثر تداولاً الآن بين الأقباط، فهو ''القُدَّاس''. وأمَّا السِّريان والموارنة، فيشتهر القُدَّاس عندهم باسم ἡ ἀναφορά (أنافورا – Anaphora)، وهي كلمة يونانيَّة تعني في المصطلح اللِّيتورجي ''تقديم القُربان أو رفعه – offering''. وأُطلقت الكلمة ''أنافورا'' على الجزء الرَّئيسي من صلاة الإفخارستيَّا، وهو الجزء الذي يحوي التَّقديس والتِّذكار والتَّناول. ولأنَّ الكلمة بذلك تغطي معظم صلوات اللِّيتورجيَّا، فقد أُطلقت عموماً على تقديم ذبيحة الإفخارستيَّا بكاملها.

ويُسمَّى القُدَّاس في اللاتينيَّة Missa ومن هذه الكلمة اللاتينيَّة جاءت كلمة Mass في الإنجليزيَّة.

• أمَّا خُبز الإفخارستيَّا نفسه، فيُعرف في الطُّقوس القبطيَّة والبيزنطيَّة والآشوريَّة، باسم: ''الحَمَل lamb'' أو ''حَمَل الله''. واستخدام هذا الاصطلاح وترتيله أثناء القسمة يمكن شرحه إذا تذكَّرنا حقيقة أنَّ الشَّرق المسيحي يطبِّق الاصطلاح θυσία (ثيسيَّا) أي ''ذبيحة'' أو الاصطلاح المقابل له θυσία φρικτή (ثيسيَّا فريكتي) أي ''الذَّبيحة المخوفة''، على تقدمة الإفخارستيَّا[٤].

وإنَّ الاصطلاح اللِّيتورجي ''الحَمَل'' نجده عند البابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨- ٣٧٣م)، حيث يدعوه ''الحَمَل السَّمائي''، فيقول:

[علينا أن نستعد لكي نقترب من الحَمَل السَّمائي ونؤهَّل لنلمس الطَّعام السَّمائي[٥]، فلنغسل أيدينا، ونطهِّر الجسم ونحفظ العقل من أيِّ شر حتى إذا كنَّا كلُّنا أطهاراً، نستحق أن نتناول من الكلمة].

وقد دخل اصطلاح ''حَمَل الله'' كاصطلاح ليتورجي إلى قُدَّاس كنيسة روما بواسطة البابا سرجيوس الأوَّل (٦٨٧-٧٠١م) الذي وُلد في سيسيليا Sicily من عائلة جاءت أصلاً من أنطاكية.

عادة الصَّوم قبل التَّناول من الأسرار المقدَّسة

• إنَّ عادة الصَّوم قبل التَّناول من الأسرار المقدَّسة، كانت مستقرَّة ومعروفة في أيام آبائنا الرُّسُل الأطهار. ففي سفر الأعمال (٢:١٣) نقرأ: «وبينما هم يخدمون الرَّب ويصومون ...». فكلمة ''يصومون'' في اليونانيَّة جاءت مصدر في حالة الإضافة في الجمع، وتتبع في الزَّمن ما يسبقها من أفعال. وتكون ترجمتها الحرفيَّة ''بينما كانوا صائمين''، لأنَّ الأفعال السَّابقة لها، جاءت كلُّها في الزَّمن الماضي. ويُسمَّى هذا التَّركيب اللُّغوي عند النَّحويِّين Absolute participle . وفي التَّرجمة القبطيَّة لهذه الآية

4- Anton Baumstark, *Comparative Liturgy*, English Edition By F.L. Cross, London, 1958, p. 86-87.

٥- كان التَّناول في القرون الأولى يسلَّم في اليد اليُمنى للمتناول، حيث يضع المتناول يده اليُسرى تحت اليُمنى، ثم يتناول الأسرار إلى فمه. وسيرد شرح ذلك في فصل التَّناول في نهاية هذا الكتاب. وقد أُلغيت هذه العادة، واستُبدلت بما هو جاري الآن، منعاً من العوارض التي قد تصيب الجواهر المقدَّسة.

ⲉⲩϣⲉⲙϣⲓ ⲇⲉ ⲙ̀Ⲡⲟ̅ⲥ̅ ⲉⲩⲉⲣⲛⲏⲥⲧⲉⲩⲓⲛ ...

أي ''وبينما هم يخدمون الرَّب صائمين ...''.

حضور المسيح في سرّ الإفخارستيَّا

• بحسب فكر آباء الكنيسة، نحن نتناول جسد المسيح الحقيقي في صورة الخُبز، ونتناول دم المسيح الكريم، في صورة الخمر. فحضور المسيح في الأسرار، ليس حضوراً مادياً، ولا حضوراً روحياً، بل هو حضور سرِّي وحقيقي، في آن معاً.

ولقد حافظ اللاَّهوت الأرثوذكسي على تعليم الآباء الذي يؤكِّد على الحضور الحقيقي للمسيح في سرِّ الإفخارستيَّا، وتحوُّل الخُبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه، دون محاولة تفسير هذا التَّحوَّل بلغة الفلسفة. إذ يرفض اللاهوت الأرثوذكسي مفهوم تحوُّل جوهر الخُبز والخمر في الإفخارستيَّا Transubstantiation ، وهو التَّعليم الكاثوليكي. ويرفض أيضاً مفهوم وجود الجوهرَين معاً Consubstantiation ، أي جوهر الخُبز والخمر من جهة، وجوهر جسد المسيح ودمه من جهة أُخرى، وهو التَّعليم اللوثري. فجسد المسيح، لا يكون مكان جوهر الخُبز، كما يقول الكاثوليك، ولا معه، ولا فيه، كما يقول لوثر. بل بحسب اللاهوت الأرثوذكسي، ''هو'' هذا الخُبز بعد تقديسه.

• ولقد أورد النَّص اليوناني للقُدَّاس الباسيلي الذي نشره رونودوت E. Renaudot ثلاث صلوات للقسمة؛ الأولى غير معروفة لدينا، والثَّانية هي القسمة العادية للقُدَّاس الباسيلي، والثَّالثة هي التي تُقال الآن في عيد الغطاس.

أمَّا صلاة القسمة الأولى فهذا نصُّها: ''يا إلهنا، إله الخلاص، علِّمنا أنت أن نشكر باستحقاق إحساناتك، التي عملتها وتعملها معنا كلَّ حين. أنت هو إلهنا الذي قبلت هذه القرابين. طهِّرنا من كلِّ دنس الجسد والرُّوح، وعلِّمنا أن نكمِّل القداسة بخوفك. لكي بشهادة ضمير طاهر، قابلين نصيباً من قُدساتك، نتَّحد بالجسد المقدَّس والدَّم، اللَّذين لمسيحك، ونقبل هذا باستحقاق. ويكون لنا المسيح ساكناً في قلوبنا، ونصير هيكلاً لروحك القدُّوس. نعم، يا إلهنا لا تجعل فينا أحداً مجرماً في حق أسرارك هذه الرَّهيبة، ولا مريضاً بالنَّفس والجسد، بسبب تناوله بغير استحقاق. لكن أعطنا حتى النَّفَس الأخير، أنَ نقبل باستحقاق رجاء قُدساتك، زاداً للحياة الأبديَّة، وجواباً مقبولاً أمام منبر مسيحك المخوف، لكي نصير نحن أيضاً مع قدِّيسيك الذين أرضوك منذ البدء، شركاء خيراتك الأبديَّة، التي أعددتها لمحبِّيك ياربُّ. واجعلنا مستحقِّين يا سيِّد، أن نجسر بدالة بغير وقوع في دينونة، أن ندعوك أنت يا الله الآب السَّماوي، ونقول ..''[٦].

• يقول الأب ألكسندر شميمان: إنه أمرٌ ثابت ولا جدال فيه، أن مناولة جميع المؤمنين في كلِّ قُدَّاس إلهي، كانت قاعدة واضحة في الكنيسة الأولى، ولكن ما يجب أن نشدِّد عليه هو أنَّ هذه المناولة الجماعيَّة والمنتظمة فُهمت واختُبرت، ليس فقط كعمل تقوي وتقديس شخصي، بل فوق كلِّ شيء، كعمل نابع من عضويَّة المرء في الكنيسة. بالضَّبط كتحقيق وإنجاز لهذه العضويَّة.

لقد عُرفت الإفخارستيَّا واختُبرت كسرِّ الكنيسة، وسرِّ الجماعة، وسرِّ الوحدة ... وكان من المتعارف عليه أنَّ الذي لا يتناول لأسابيع قليلة، يكون قد حرم نفسه وفصلها عن جسد الكنيسة. إنَّ مناولة جسد المسيح ودمه، كانت الإنجاز الواضح للمعموديَّة والميرون. ولم يكن هناك أيُّ شرط آخر لاقتبال المناولة. وجميع الأسرار الباقية ''تُختم'' بالاشتراك في القُدسات. وهذا الارتباط بين العضويَّة في الكنيسة والمناولة كان واضحاً، لدرجة أننا نجد في النُّصوص اللِّيتورجيَّة الأولى أنه قبل تقديس القرابين يتم تسريح أولئك الذين لا يحق لهم الاشتراك في الأسرار الإلهيَّة. ويجب أن يكون واضحاً عندنا مهما تعقَّدت وغمضت هذه الأمور فيما بعد، أنَّ هذا الفهم والخبرة الأوليين للمناولة، سيبقيان إلى الأبد القاعدة الأساسيَّة لتقليد الكنيسة.

أمَّا إحجام البعض عن التَّناول بدافع الحرص الشَّديد على قُدسيَّة المناولة، مخافة تدنيس الأسرار إذا تناولها أولئك عن غير استحقاق، فهو إحجام لم يعُد صحيحاً اليوم. لأنه لو كان صحيحاً، لشعر غير المتناولين ببعض الحُزن على الأقل وهم

٦- مترجمة عن اليونانيَّة بواسطة رهبان دير القدِّيس أنبا مقار.

يحضرون القُدَّاس الإلهي، ولتأسَّفوا على عدم استحقاقهم وعلى خطاياهم التي تفصلهم عن القُدسات، ولشعروا باختصار بأنهم ''محرومون'' من الكنيسة. ولكن بالواقع، لا شيء من هذا. جيلٌ بعد جيل من الأرثوذكس، يحضرون القُدَّاس بضمير طاهر، مقتنعين كُلياً أنَّ شيئاً أكثر ليس مطلوباً منهم، وأنَّ المناولة ببساطة ليست لهم. وعندما يتناولون في تلك المرَّات القليلة والنَّادرة، فهم يتناولون كإتمام فرض أو واجب. وبهذه المناولة يعتبرون أنفسهم مسيحيِّين.

إنه من المستحيل أن نجد نصاً آبائياً واحداً، يدعم فكرة أنه إذا لم يستطع المرء أن يتناول باستحقاق، من الأفضل له أن يمتنع عن المناولة.

لقد كتب القدِّيس يوحنا كاسيان (٣٥٠/٣٦٠-٤٤٠/٤٥٠م):

[يجب ألاَّ نتجنَّب المناولة بحجة الشُّعور بأننا خاطئون. علينا أن نتناول مراراً كثيرة، من أجل شفاء النَّفس، وتطهير الرُّوح. ولكن بتواضع وإيمان، معتبرين أنفسنا غير مستحقِّين].

علينا أن نلتمس البلسم لجراحنا، فمن المستحيل أن نتناول مرَّة في السَّنة، كما يفعل البعض، معتبرين أنَّ تقديس الأسرار متيسِّر فقط للقدِّيسين. إنه من الأفضل التَّفكير بأنَّ السِّر إذ يعطينا النِّعمة، يُطهِّرنا ويُقدِّسنا. هؤلاء النَّاس يُظهرون كبرياءً أكثر من التَّواضع، لأنهم عندما يتناولون، يعتبرون أنفسهم كمستحقِّين، وإننا لن نكون مستحقِّين أبداً.

عندما أصبحت المناولة أداة للتَّقوى الشَّخصيَّة والتَّقديس الفردي، ومحرومة كلياً من معناها الكنسي، بطلت بالتَّالي أن تكون العضويَّة في الكنيسة متجذِّرة ومقاسة بالاشتراك في سرِّ وحدة الكنيسة، وإيمانها، ومحبَّتها، وحياتها.

إنَّ المرء يأكل ويشرب بغير استحقاق، عندما يتناول ظاناً نفسه ''مستحقاً'' بقداسته الخاصة، وليس بقداسة المسيح.

إنَّ قول الرَّسول: «فليختبر الإنسان نفسه، وهكذا فليأكل من هذا الخُبز، ويشرب من هذه الكأس» (١كورنثوس ١١:٢٨) والغاية من هذه التَّهيئة، ليس أن يعتبر الإنسان نفسه ''مستحقاً''، بل أن تجعله يعي بالضَّبط أنه ''غير مستحق''، وأن تقوده إلى التَّوبة الحقيقيَّة. والتَّوبة هي كلُّ هذا؛ أن يرى الإنسان خطاياه وضعفه، وأن يُدرك أنه منفصل عن الله، فيحزن ويغتم لهذا الأمر، ومن ثمَّ، يرغب الغفران والمصالحة، رافضاً الشَّر، ومختاراً العودة لله، ومشتاقاً بالنِّهاية للمناولة، من أجل شفاء النَّفس والجسد[٧].

❑ إذاً الإفخارستيا أساساً، هي سرُّ وحدة الكنيسة، وبدون الإفخارستيا كان يستحيل أن يقول بولس الرَّسول: «إننا أعضاء جسمه، من لحمه وعظامه» (أفسس ٥:٣٠). وكان يستحيل أن نقول: 'إن الكنيسة هي جسد المسيح'. ولكنَّنا نقول ذلك، على أساس أنَّ جميع المؤمنين يتناولون جسد المسيح الواحد، فيصيرون أعضاء لهذا الجسد.

٧- مقتطفات من مقال له في كتاب ''الصَّوم الكبير''، وقد نُشر جزء منه في مجلَّة النُّور، العدد الرَّابع، ١٩٨٥م.